فيودور دوستويفسكي.. مضطرب في الحب كما في الحياة

نخيل نيوز ـ متابعة

عاش دوستويفسكي حياة عكست رواياته: معقدة، متوترة، ومليئة بالاضطرابات النفسية. كان مخلصا للنساء اللواتي رافقنه في حياته، تماما كما كان مخلصا للروايات التي شعر بدافع قوي لكتابتها.

كان دوستويفسكي الكاتب الروسي الوحيد في القرن التاسع عشر الذي حُكم عليه بالأشغال الشاقة، إذ قضى أربع سنوات في معسكر سيبيري. وشاءت الأقدار – أو ربما سوء الحظ – أن يلتقي الروائي المنهك، بُعيد إطلاق سراحه، بماريا إيسايفا. وكانت العلاقة معقدة منذ البداية: فعندما التقيا، كانت إيسايفا متزوجة ولديها ابن صغير، واضطر دوستويفسكي للانتظار حتى وفاة زوجها قبل أن تُعلن خطوبتهما.

مع ذلك، لم يكن هذا الحب الأول المتأخر بالبساطة التي كان يأملها دوستويفسكي. فقد بدأت إيسايفا بمضايقة الكاتب برسائل تخبره فيها بنيتها الزواج من أحد المسؤولين الأثرياء. ورغم زواجهما في نهاية المطاف، استمرت مشاكلهما، ولم ينعما بزواج سعيد، إذ اتخذ دوستويفسكي من إيسايفا دور الصديق أو الأخ أكثر من الزوج. ويكتب مارك سلونيم، الباحث الروسي البارز، في كتابه "عاشقات دوستويفسكي الثلاث": "أحبها لكل تلك المشاعر التي أثارتها فيه، ولكل ما قدّمه لها، ولكل ما ارتبط بها، ولكل الآلام التي سبّبتها له".

كان يجمعهما الألم المشترك لا المودة، وقد استوحى دوستويفسكي شخصية ناتاشا في روايته "المُذلّة والمُهانة" (1861) من زوجته الأولى. ومثل إيسايفا، تميل ناتاشا إلى تعذيب عشاقها.

التقى دوستويفسكي بالشابة أبوليناريا سوسلوفا خلال إحدى قراءاته العامة. وكان يبلغ من العمر 42 عاما، أي أكبر منها بعقدين. وكانت جذابة فاتنة تشاركه ذوقه الأدبي وشغفه الجسدي. ومع ذلك، لم يستطع تلبية جميع رغباتها، فبما أن دوستويفسكي كان لا يزال متزوجا، أقام علاقة سرية مع سوسلوفا، لكنها اتخذت عشاقا آخرين وتركته. وعادت بعد عامين، لكنها لم تعد تلك الشابة الساذجة، ورفضت الزواج من الكاتب الكبير.

ولعل أبوليناريا سوسلوفا كانت المرأة التي آلمت دوستويفسكي أكثر من غيرها. يقول سلونيم: "كان يتألم وهو يناديها باسمها، وبقي على تواصل معها حتى بعد زواجه، ودائما ما كان يصورها في رواياته. وحتى مماته، ظلّ يتذكر لمساتها

الحانية وصفعاتها. لقد كان متيما بهذا الحب المغري والقاسي والخائن والمأساوي".

ويمكن تلمّس أثر سوسلوفا في دوستويفسكي في جميع رواياته، إذ يمكننا أن نلمح سماتها في شخصية دونيا المضحية في رواية "الجريمة والعقاب" (1866)، وناستاسيا فيليبوفنا اليائسة والعاطفية في رواية "الأبله" (1869)، وليزا الفخورة والعصبية في رواية "الشياطين" (1872). وعلاوة على ذلك، لا شكّ أن شخصية بولينا، بطلة رواية "المقامر"، مستوحاة من سوسلوفا.

وكانت آنا سنيتكينا، التي تصغر دوستويفسكي بخمسة وعشرين عاما، كاتبته المختصرة أثناء عمله على رواية "المقامر". وانشغل كلاهما بإتمام الرواية لدرجة أنهما لم يتخيلا الحياة من دون بعضهما، فتزوجا عام 1867. وفي هذه الرواية تحديدا تلاقت ثلاث من أعظم قصص حب دوستويفسكي: فقد شكّلت شخصية أبوليناريا سوسلوفا أساس بطلتها، وكُتبت بعد وفاة زوجته الأولى ماريا إيسايفا، وتولت كتابتها زوجته المستقبلية آنا سنيتكينا.

وفي البداية، لم يرَ دوستويفسكي في زواجه من سنيتكينا سوى الجانب العملي، إذ كان بحاجة إلى الاستقرار والثقة في المستقبل، ونتيجة لذلك سارت علاقتهما في بادئ الأمر على نفس منوال علاقاته السابقة. إلا أن "شهر العسل" الطويل الذي قضياه في الخارج، والذي امتد لأربع سنوات، أتاح لهما الهروب من أجواء روسيا القمعية ومحاولة بناء أسرة.

وبدأت حياتهما الزوجية بداية طيبة، إذ رُزقا بابنتهما سونيا بعد عام من زواجهما، لكن سرعان ما حلّت المأساة بوفاتها. وأنجب الزوجان ثلاثة أطفال آخرين، توفي أحدهم أيضا.

واستمر زواجهما أربعة عشر عاما حتى وفاة دوستويفسكي، وخلال تلك الفترة عانت سنيتكينا معاناة شديدة بسبب شخصية دوستويفسكي الصعبة وأسلوب حياته، ولا سيما غيرته وإدمانه على القمار. ومع ذلك، ظلت مخلصة له بصبر وثبات، ولم تتزوج بعد وفاته حين كانت في الخامسة والثلاثين من عمرها.

ولم تحاول آنا سنيتكينا تغيير دوستويفسكي، بل تقبّلته بكل عيوبه، ما جعل هذا الزواج أسعد وأكثر انسجاما في حياة الكاتب المضطربة.